هنا لا يغض التزام الشاعر من مستوى القصيدة الفني ، بل تسمو القصيدة فنيا بمفهوم الشاعر الجديد للالتزام .

لكن تطور مفهوم محمود درويش لمعنى الالتزام طرح امامه قضية جديدة : كيف يستطيع الشاعر الملتزم ان يصل بنتاجه الشعري الى الجماهير ، ويحافظ في الوقت نفسه على مستوى فني رفيع للقصيدة ؟ يقول درويش: «ولكن «اخر الليل » الذي اعتبره افضل ما كتبت ، استقبل بفتور علني من أغلبية القراء في بلادنا . وقال لي عشرات من المثقفين : يا محمود ! عد الى الوراء . اذا كان هذا هو التقدم الفني فليتك لم تتقدم ؛ وقيل لي بشفقة : «ليتك لم ترحل عن القرية .. هذا الشعر غير مفهوم» ...من المكابرة ان اقول اني لم أشعر بعذاب نفسي . هل يترتب علي ، لكي لا ينقطع التفاعل بين شعري وبين الناس ، ان اعود الى التعبير المباشر ، والحث الصريح على الكفاح والتمسك بالامل والعقيدة ؟ ... ان هذه الاسئلة تشغل بالي بشكل ملح ، وخاصة انني اعتبر نفسي شاعرا ثوريا يخاطب الجماهير ويلتزم بقضية الجماهير ويكتب من اجل الجماهير »(٣٦). والاجابة ، في رأيي ، هي أن على الشاعر أن يروض القراء على تلقي الشعر الجيد الذي لا يخضع لسهولة التعبير المباشر ، لا ان يستجيب للسهولة المبتغاة ، وبذلك يتحمل الشاعر الملتزم بالاضافة الى مسؤولية النضال والتعبير ، مسؤولية النهوض بالذوق العام ، والانتقال به من طور القصيدة الكلاسيكية الخطابية الى القصيدة الحديثة التي لا تستسلم للخطابية والمباشرة .

لم ينشر محمود درويش مجموعة شعرية قبل ديوانه « العصافير تموت في الجليل » الصادر عن دار الاداب في حزيران عام ١٩٧٠ . وان كانت قد « أصدرت » للشاعر ثلاثة دواوين لم يختر قصائدها ولا عناوينها : اثنان منها عام ١٩٦٩ ، حمل احدهما عنوان « حبيبتي تنهض من نومها » ، والثاني عنوان « يوميات جرح فلسطيني » ، وثالث عام ١٩٧٠ حمل عنوان « الكتابة على ضوء بندقية » . وقد كانت هذه الدواوين تجميعا لقصائد مختلفة ظهرت للشاعر في المجلات والجرائد ، لا تربطها تجربة واحدة ولا زمن متقارب ، وتكرر بعضها في اكثر من مجموعة شعرية ، وشاعت فيها اخطاء كثيرة مختلفة(٣٧).

وقد أشار محمود درويش الى هذه القضية في مقابلة اجرتها معه مجلة الاداب حين قال: « لست متحمسا للطريقة التي تنشر فيها كتبي في بيروت . اني اسمع عن صدور كتب لم أصدرها . لماذا ؟ لم أمت بعد ، عندما أموت افعلوا بي ما تشاؤون ، ولكن الان دعوني اعمل على مهلي . دعوني اكتب في الظل ، واتركوا لي ان اقرر متى اخرج الى الضوء . وارجو ان يكون لي الحق في مطالبة النقاد بالا يحاسبونني الا على ما أصدره أنا . ولذلك من الضروري ان اقول اني لم أصدر منذ مجموعة « آخر الليل » الصادرة في كانون الاول ١٩٦٧ الا مجموعة واحدة هي « العصافير تموت في الجليل » . ومع ذلك اريد أن اشكر الناشرين الذين يهتمون باعمالي . ولكنه شكر مشوب بالعتاب الودي »(٣٨).

لهذا السبب لن أتوقف عند هذه المجموعات الشعرية ، بل عند ديوان « العصافير تموت في الجليل » ، الذي صدر خلال اقامة الشاعر في موسكو ، وكتبت معظم قصائده عام ١٩٦٩ ، عندما وصلت القضية الفلسطينية الى ذروة تأزمها : فالعدو الصهيوني يضم الاراضي التي احتلت ، ويواصل ارهابه اليومي ضد الشعب الفلسطيني ، والعالم يتفرج على المجازر المتواصلة ولا يحرك ساكنا ، والثورة الفلسطينية تواصل عملياتها العسكرية لتحرير الوطن المغتصب . وقد انطلقت تجربة محمود درويش الشعرية من هذا الواقع ، فقال في التعبير عن تجربته الشعرية في هذا الديوان : « دم على الطرقات وفي كل الحدائق ... وعلى مرايا العالم ، والحقيقة تأخذ شكل المذبحة . والضحية مطالبة باثبات براءتها ، ولا قاض الا الموت . هل استطاع وطني ان يملك الا حريته في